

## بلاغة الالتفات فيما ختم بأسماء الله الحسنى من آيات

دسوقي إبراهيم محمد<sup>١</sup>

### ملخص البحث

تهدف هذه الدراسة إلى مناقشة بنية الالتفات ، في خواتم الآيات القرآنية ، التي تشمل أسماء الله الحسنى ، وما تؤديه من دور مهم في إنتاج الدلالة القرآنية ، مظهرة الإعجاز البياني للقرآن الكريم ، في هذا الحيز الضيق من الآيات الكريمة . كما تحاول الدراسة الإمام بالصور الستة التي تعتمد عليها بنية الالتفات معتمدة في ذلك المنهج الوصفي التحليلي ، آملة أن تصل إلى نتائج مرجوة .  
**الكلمات المفتاحية :** الالتفات، خواتم، قرآنية، الدلالة

### Abstract

This study aims to discuss the structure of transformation. In the endings of Quranic verses which includes the names of Allah and plays an important role in Producing Quranic meaning showing structural greatness of the Holy Quran in that limited area of Quranic verses. As well as trying to studying the six suras which the structure of transformation depends on Hoping to reach to fruitful results.

**Keywords:** Transformations, the ending Quranic meaning.

### تقديم

لما كان من الصعوبة ، بل الاستحالة بمكان ، أن تضم دراسة ما القرآن الكريم بكليته - بعيداً عن التفاسير التي قدمت له على مر العصور - تخصصت كل الدراسات التي قُدمت في القرآن الكريم بمساحة ما من آيات التنزيل الحكيم .

وفي الحقيقة ، أن هذا التخصص هو الذي يكسب الدراسة قوة ومتانة في التناول والمعالجة العلمية ؛ إذ كلما تخصص الموضوع كان البحث أدق وجاءت النتائج مرجوة .

<sup>١</sup> أستاذ مشارك، كلية الإلهيات، قسم اللغة العربية، جامعة أتانورك وجامعة بايبورت، الجمهورية التركية، سابقاً.

من هذا المنطلق ، جاء اندهاشي من بلاغة الخواتم القرآنية ، وبخاصة التي تشمل أسماء الله الحسنى ؛ لذا قدمتُ دراسة في هذا الجزء من الآيات الكريمة ، عالجْتُ فيها التشكيل الأسلوبي التي اعتمدتُ عليه الخواتم القرآنية ، من حيث الأساليب الخبرية والإنشائية (٢) .

ثم جاءت هذه الدراسة ؛ لتكشف عن الإعجاز البياني الذي ينتج من بنية الالتفات ، بكل تفاعلاتها اللغوية ، وتبديل طرقي الخطاب فيها ما بين المتكلم والمخاطب والغائب ، وإبراز دور السياق في مضمون الرسالة ، ودور القارئ المتلقي في فهمها .

ويتضمن هذا البحث العناصر الآتية : أولاً التقديم . ثانياً : إشكالية البحث . ثالثاً : منهج البحث . رابعاً : محاور البحث . خامساً : الخاتمة والنتائج والتوصيات . سادساً : المصادر والمراجع .

**إشكالية البحث :** تكمن إشكالية البحث في التفتيش عن مناط الإعجاز في أضيق مساحة في الآيات القرآنية وهي خاتمته . ولتعدد جوانب الإعجاز في هذا الجزء ، تخصص البحث في الكشف عن جماليات اللغة في بنية الالتفات .

**منهج البحث :** يعتمد البحث على المنهج الفني المكون من عنصرين : رصد الخواتم القرآنية التي تعتمد على بنية الالتفات ، ثم تحليل هذه النماذج في ضوء المنطلق البلاغي .

**محاور البحث :** يعتمد البحث على المحاور الآتية : **المحور الأول** ، تعريف الخاتمة لغة واصطلاحاً . **المحور الثاني** : الفرق بين الخاتمة والفاصلة . **المحور الثالث** : علاقة الخاتمة بالآيات القرآنية . **المحور الرابع** : العناصر المكونة لبنية الالتفات .

### المحور الأول : الخاتمة لغة واصطلاحاً

كان لزاماً عليّ – قبل أن أبدأ هذه الدراسة – أن أحدد مفهوم الخاتمة لغة واصطلاحاً ، بوصفها المنطقية اللغوية التي تحتضن بنية الالتفات في هذه الدراسة . والخاتمة لغة من حَتَمَ الشيءَ يَحْتَمُهُ حَتْمًا بَلَعَ آخره، وَحَتَمَ اللهُ له بخير ، وخاتَمَ كل شيءٍ وخاتَمْتُهُ : عاقبتهُ وآخَرُهُ . واحتتمتُ الشيءَ : نقيضُ افتتاحته . وخاتمةُ السورة : آخرها (٣) . وهذا المفهوم اللغوي ، هو الواضح من الحيز الذي تشغله الخاتمة ، وهو نهاية الآية القرآنية الكريمة .

(٢) جاءت هذه الدراسة تحت عنوان (التشكيل الأسلوبي لخواتم الآيات القرآنية التي تشمل أسماء الله الحسنى) ، مجلة كلية الإلهيات (مجلة محكمة) ، جامعة بابل ، تركيا ، العدد ٦ ، ٢٠١٧ م : ص ٣١-٥٩ .

(٣) انظر : ابن منظور ، لسان العرب ، دار المعارف ، القاهرة – مصر ، بدون تاريخ : مادة (ختم) .

أما الخاتمة في المفهوم الاصطلاحي، فهي آخر تركيب لغوي يمكن الوقوف عليه، قبل الوصول إلى نهاية الآية . وربما يكون هذا التركيب اللغوي جملة أو عدة جمل . وهذه الجملة قد تكون جملة اسمية (٤) ، وقد تكون جملة فعلية . فمثال الأول قول الله عز وجل: ﴿ وَاللَّهُ عَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ ، حيث أُسِّسَت الخاتمة على الجملة الاسمية البسيطة (مبتدأ + خبر) .

أما الخاتمة المؤسسة على الجملة الفعلية البسيطة فمثالها قول الله عز وجل : ﴿ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ﴾ ( الزخرف : ٩ ) أو قوله تعالى : ﴿ تَبَّأَيَّ الْعَلِيمُ الْحَبِيرُ ﴾ (التحریم : ٣) .

وفي بعض الأحيان تعتمد الخاتمة على أكثر من جملة ، وذلك مثل قوله سبحانه: ﴿ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ ، حيث أُسِّسَت الخاتمة على جملة اسمية بسيطة ( الله خبير ) ، متضمنة بداخلها التركيب الزمني (تعلمون) الذي وقع في منطقة اللامحل من الإعراب بتأثير الموصول (ما) . وكذلك قوله تعالى : ﴿ وَاعْلَمَ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ (البقرة : ٢٦٠) .

وأحياناً ترد الخاتمة معتمدة على بنية الشرط ، مثل قوله سبحانه وتعالى : ﴿ وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴾ (البقرة : ١٥٨) . وكل هذه التفاعلات اللغوية والرُّبُوبِيَّة لها طاقاتها الجمالية التي تنم عن بديع الإعجاز (٥) .

### المحور الثاني : الفرق بين الخاتمة والفاصلة

قبل توضيح الفرق بين الخاتمة والفاصلة ، نتعرف أولاً على مفهوم الفاصلة . الفاصلة في القرآن الكريم هي كلمة آخر الآية كقافية الشعر وقريئة السجع . وقال الداني : كلمة في آخر الجملة . وقال القاضي أبو بكر: الفواصل حروف متشاكلة في المقاطع ، يقع بها إيفهام المعاني . وقد فرق الداني بين الفواصل ورؤوس الآي فقال : الفاصلة هي الكلام المنفصل عما بعده ، والكلام المنفصل قد يكون رأس آية وغير رأس ، وكذلك الفواصل تكون رؤوس آية وغيرها ، وكل رأس آية فاصلة وليس كل فاصلة رأس آية (٦) .

(٤) ويندرج تحت هذا الضرب كل الجمل الاسمية الداخلة عليها بعض الحروف الناسخة : مثل إِنَّ وَأَخَوَاتِهَا ، مثل قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (البقرة : ٢٠) ، أو الأفعال الناسخة مثل (كان) ، وذلك مثل قوله تعالى : ﴿ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ (النساء : ١٧) .

(٥) ما قدمناه من عرض للخواتم القرآنية، لا يشترط أن يُبنى على بنية الالتفات، وإنما قدمناه بوجه عام.

(٦) انظر : الزركشي ، البرهان في علوم القرآن ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار الجليل ، بيروت - لبنان ، ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م ، الجزء الأول : ٥٣ ، ٥٤ . وكذلك : السيوطي ، الإتقان في علوم القرآن ، تحقيق شعيب الإرنؤوط ، مؤسسة الرسالة - بيروت ، الطبعة الأولى ٢٠٠٨ م : ٦٠٩ .

ويعرف الباقلاني الفواصل بقوله : "حروف متشاكلة في المقاطع ، يقع بها إفهام المعاني، وفيها بلاغة . والأسجاع عيب ؛ لأن السجع يتبعه المعنى ، والفواصل تابعة للمعاني" (٧) . ومعنى هذا ، أن الفاصلة هي كل ما يمكن الوقوف عليه مفيداً معنى تاماً . ووفقاً لهذا يمكن عدّ الوقف اللازم ، وحتى غير اللازم داخل الآية الواحدة فاصلة ؛ فمثلاً قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنََّّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا ﴾ (البقرة : ٢٦) . هنا يمكن عدّ (مثلاً) فاصلة . وهكذا في بقية أنواع الوقف .

وقال الجعبري : "لمعرفة الفواصل طريقان: توقيفي ، وقياسي . أما التوقيفي ، فما ثبت أنه ﷺ وقف عليه دائماً ، تحققنا أنه فاصلة ، وما وصله دائماً تحققنا أنه ليس بفاصلة . وما وقف عليه مرة ووصله أخرى : احتمال الوقف أن يكون لتعريف الفاصلة ، أو لتعريف الوقف التام ، أو للاستراحة . والوصل أن يكون غير فاصلة ، أو فاصلة وصلها لتقدم تعريفها . وأما القياسي ، فهو ما ألحق من المحتمل غير المنصوص بالمنصوص لمناسب ، ولا محذور في ذلك ؛ لأنه لا زيادة فيه ولا نقصان ، وإنما غايته أنه محل فصل أو وصل" (٨) .

ويقول السيوطي في تعريف الفاصلة : " فاصلة الآية كقرينة السجعة في النثر وقافية البيت في الشعر، وما يذكر من عيوب القافية - من اختلاف الحركة والإشباع والتوجيه - فليس بعيب في الفاصلة" (٩) .  
ويقول في موقع الفواصل : " تقع الفاصلة عند الاستراحة بالخطاب ؛ لتحسين الكلام بها، وهي الطريقة التي يُباينُ القرآن بها سائر الكلام" (١٠) .

وفي تسميتها يقول : " وتسمى فواصل ؛ لأنه ينفصل عنده الكلامان ، وذلك أن آخر الآية فصل بينها وبين ما بعدها . ولا يجوز تسميتها قوافي إجماعاً؛ لأن الله تعالى لما سلب عنه اسم الشعر وجب سلب القافية عنه أيضاً؛ لأنها منه ، وخاصة به في الاصطلاح ، وكما يمتنع استعمال القافية فيه يمتنع استعمال الفاصلة في الشعر ؛ لأنها صفة كتاب الله تعالى فلا تتعداه" (١١) .

وإذا كانت الفاصلة تقع في داخل الآية وفي آخرها ، وفق ما سبق من تعريفات ، فإن الاختلاف بين الخاتمة والفاصلة يكمن في العنصرين الآتين : الأول أن الخاتمة تركيب لغوي ، أما الفاصلة فهي كلمة واحدة .  
الأخير : أن الخاتمة لا ترد في وسط الآية ، بل في آخرها ، أما الفاصلة فتزد في وسط الآية وفي آخرها .

(٧) انظر: إعجاز القرآن ، تحقيق السيد أحد صقر ، طبعة دار المعارف ، القاهرة ، الطبعة الثالثة ، بدون تاريخ : ٢٧٠ .

(٨) انظر: السيوطي ، الإتقان في علوم القرآن : ٦٠٩ .

(٩) انظر: السابق : الصفحة نفسها .

(١٠) انظر: السابق نفسه : ٦١٠ .

(١١) انظر: السابق نفسه : ٦١٠ .

### الحور الثالث : علاقة الخاتمة بالآيات القرآنية

ينبغي أن يُعْلَمَ ، أنه لا يُشْتَرَطُ أن تكون لكل آية خاتمة ، فرمما تأتي الخاتمة نهاية دلالية لآية واحدة ، وهو المشهور في القرآن الكريم . مثل قوله تعالى : ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ ؛ لأن هذه الخاتمة ترد في نهاية قوله تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (البقرة : ٢١٨) . وربما تكون الخاتمة نهاية دلالية لآيتين ، وذلك مثل قول الله عز وجل: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (البقرة: ٢٢٠) . فهذه الخاتمة تعد نهاية دلالية للآيتين السابقتين عليها ، ابتداء من قول الله عز وجل : ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ \* فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى قُلْ إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْتَبْتُمْ إِنْ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (البقرة: ٢١٩ ، ٢٢٠) ؛ لأن نهاية الآية الأولى - من الناحية النحوية - جملة ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ ، بيد أنها متعلقة ببداية الآية الثانية ﴿فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ ، ومن ثم كانت الخاتمة الدلالية للآيتين معاهي : ﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ . ومثال الخاتمة التي تأتي لآيات عدة ، قول الله عز وجل : ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ (الشعراء: ٩) ، التي تكررت في هذه السورة ، بعد كل قصة من قصص الأنبياء ، مسبوقه بقوله تعالى : ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ . فهذه الآية تعد خاتمة دلالية ، تأتي مستقرة في نهاية عدد من الآيات . ومعنى هذا ، أن الخاتمة قد تكون جملة ، أو أكثر من جملة ، أو آية كاملة .

ومع أن الخاتمة ترد في نهاية الآية القرآنية ، أو الآيتين أو أكثر ، يطلق البلاغيون على آخر كلمة فيها - وهي الفاصلة - رأس الآية . وفي رأبي أن هذا المصطلح (رؤوس الآي) قد أُطْلِقَ على فاصلة الخاتمة ؛ لأن الخاتمة كلها تمثل خلاصة دلالية للآية الكريمة ، أو تمثل منطقة تكثيف دلالي للمعاني التي تعالجها الآية الكريمة . ومن هنا كانت الوشائج والعلاقات التي تربط بين تلك الرؤوس والآي التي ترد فيها من الأهمية بمكان (١٢) .

### الحور الرابع : العناصر المكونة لبنية الالتفات

بداية ، أريد أن أسوق نقاطاً ثلاثة: الأولى أن الصور الستة للالتفات ، وردت كلها في خواتم الآيات القرآنية ، التي شملت أسماء الله الحسنى . الثانية : أني سأبدأ دراسة هذه الصور من المتكلم ثم المخاطب ثم الغائب ، بوصفهم مساقط أولى في ثنائية طرفي الخطاب في بنية الالتفات . الأخيرة أنه في بعض الأحيان ، تحتوي الآية الكريمة على

(١٢) وتتمثل تلك العلاقات في علاقات : التمكين ، والتصدير ، والتوشيح ، والإيغال . انظر في ذلك : الزركشي ، البرهان في علوم القرآن ، الجزء الأول : ٧٨ - ٩٨ .

أكثر من صورة من صور الالتفات ، ولكي أبرز بلاغة الصورة التي تأتي في خاتمة الآية ، ينبغي عليّ أن أتناول الصور التي تأتي قبلها ؛ لأبين مدى مشاركة الصور كلها في إنتاج الدلالة القرآنية .

إن أهم ما تؤديه اللغة من وظائف ، يتمثل في التواصل بين المتحدثين بها . ومن الثابت أن الأدوات اللغوية المنوطة بأداء هذا التواصل تتمثل في الضمائر . وإذا كانت هذه هي الطرق اللغوية المتبعة في الخطابات التواصلية بين الناس ، فأحياناً يعدل المتكلم من ضمير إلى آخر ، لدواعٍ متنوعة ، سنتحدث عنها بعد قليل ، مما ولد ظاهرة الالتفات في الخطاب اللغوي ، وزج بها في مجال الدراسات البلاغية .

والآن نستعرض سريعاً أقوال البلاغيين القدامى في ظاهرة الالتفات . يقول العلوي : " اعلم أن الالتفات من أجل علوم البلاغة، وهو أميز جنودها، والواسطة في قلائدها وعقودها، وسمي بذلك أخذاً له من التفات الإنسان يميناً وشمالاً ، فتارة يقبل بوجهه وتارة كذا وتارة كذا ، فهكذا هذا النوع من علم المعاني ، فإنه في الكلام ينتقل من صيغة إلى صيغة ، ومن خطاب إلى غيبة، ومن غيبة إلى خطاب ، إلى غير ذلك من أنواع الالتفات" (١٣).

وفي اختصاص اللغة العربية ، دون غيرها من اللغات بظاهرة الالتفات ، يقول العلوي أيضاً : " ولا شك أن الالتفات مخصوص بهذه اللغة العربية ، دون غيرها ، ومعناه في مصطلح علماء البلاغة ، هو العدول من أسلوب في الكلام ، إلى أسلوب آخر ، مخالفاً للأول" (١٤) .

ويقول الزركشي في حقيقة الالتفات ودوافعه : "هو نقل الكلام إلى أسلوب آخر ، تطرية واستدرازاً للسامع ، وتجديداً لنشاطه ، وصيانة لخاطره من الملل والضجر ، بدوام الأسلوب الواحد على سماعه" (١٥) .

وفي درء الملل عن المتكلم يقول حازم القرطاجني : " وهم – أي العرب – يسأمون الاستمرار على ضمير متكلم أو ضمير مخاطب ، فينتقلون من الخطاب إلى الغيبة . وكذلك أيضاً بتلاعب المتكلم بضميره ، فتارة يجعله (تاء) على جهة الإخبار عن نفسه ، وتارة يجعله (كافاً) فيجعل نفسه مخاطباً ، وتارة يجعله (هاء) ، فيقيم نفسه مكان الغائب . فلذلك كان الكلام المتوالي فيه ضمير المتكلم والمخاطب لا يستطاب ، وإنما يحسن الانتقال من

(١٣) انظر : الطراز ، مطبعة المقتطف بمصر ، ١٩١٤ م ، الجزء الثاني : ١٣١ .

(١٤) انظر : الطراز ، الجزء الثاني : ١٣٢ .

(١٥) انظر : البرهان في علوم القرآن ، الجزء الثالث : ٣١٤ . وانظر : السكاكي ، مفتاح العلوم ، تحقيق الدكتور عبد الحميد هندواوي ، دار الكتب العلمية ، بيروت – لبنان ، الطبعة الأولى ، ١٤٢٠ هـ – ٢٠٠٠ م : ٢٩٦ . وانظر : الزنجشيري ، الكشف ، تحقيق وتعليق ودراسة ، الشيخ عادل أحمد عبد الموجود ، والشيخ علي محمد معوض ، مكتبة العبيكان ، الطبعة الأولى ١٤١٨ هـ – ١٩٩٨ م ، الجزء الأول : ١١٩ ، ١٢٠ .

بعضها إلى بعض، وهو نقل معنوي لا لفظي، وشرطه أن يكون الضمير في المنتقل إليه عائداً في نفس الأمر إلى الملتفت عنه، ليخرج نحو: أكرم زيدا، وأحسن إليه، فضمير (أنت) الذي هو في (أكرم) غير الضمير في (إليه) " (١٦) .  
ولما كان الالتفات ينبثق من الأنواع الثلاثة للضمائر: التكلم والخطاب والغيبة، تولد لدينا ست صور:  
الالتفات من التكلم إلى الخطاب، والالتفات من التكلم إلى الغيبة، والالتفات من الخطاب إلى التكلم، والالتفات من الخطاب إلى الغيبة، والالتفات من الغيبة إلى التكلم، وأخيرا الالتفات من الغيبة إلى الخطاب .

والآن، أبدأ أولى صور الالتفات، وهي الانتقال من التكلم إلى الخطاب . يقول المولى عز وجل: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مِّنْ نَّشَأٍ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ (الأنعام: ٨٣) . وتتضح صورة الالتفات هنا من التكلم إلى الخطاب، من خلال الضمائر؛ ففي منطقة التكلم يرد الضمير (نا)، المنوط بالاسم (حججتنا)، وبالفعل (آتيناهما)، والضمير المستتر (نحن)، الذي يقع في منطقة الفاعل للفعلين (نرفع - نشأ). أما في جانب الخطاب، فثمة ضمير (ك)، العائد على النبي ﷺ، في دال (ربك) .

وفي هذه الخاتمة يقول البقاعي: " (إن ربك) أي خاصاً لنبيه ﷺ، بالمخاطبة باسم الإحسان، تبييناً على أن حجه الدليل عمن يشاء لحكم أرادها سبحانه، ففيه تسلية له ﷺ " (١٧) .  
وفي الخاتمة نفسها يقول الألوسي: " وفي وضع الرب مضافاً إلى ضميره - عليه الصلاة والسلام - موضع نون العظمة بطريق الالتفات، في تضاعيف بيان حال إبراهيم عليه السلام، ما لا يخفي من إظهار مزيد اللطف والعناية به ﷺ " (١٨) .

ومن الواضح، أن الالتفات من التكلم، الخاص بالحق سبحانه وتعالى إلى التخاطب، الخاص بالنبي ﷺ، جاء في سياق التعطف والتلطف بالنبي ﷺ، وكذلك تسلية له، وتأنيساً لقلبه . ومع ذلك لم يقتصر دور الالتفات على هذا الحد، بل أدى وظائف دلالية أخرى، أناقشها من خلال هاتين النقطتين:  
الأولى: أن هذا الالتفات، ورد في سياق مقطع قرآني طويل، تناول صراع سيدنا إبراهيم عليه السلام مع قومه، وما آتاه الله من حجج، لنصرته على قومه، ثم حديث الحق عن بقية الأنبياء . وهذا المقطع يبدأ بقول ربنا عز وجل: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ أَرَزَرْتَنِي أَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ (الأنعام: ٧٤)، وينتهي بقوله سبحانه: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَاهُمُ اقْتَدِهْ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾ (الأنعام: ٩٠) .

(١٦) انظر: منهاج البلغاء وسراج الأدباء، تقديم وتحقيق محمد الحبيب ابن الخوجة، دار الغرب الإسلامي، بيروت - لبنان، الطبعة الثالثة، ١٩٨٦م : ٣٤٨ .

(١٧) انظر: نظم الدرر، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، بدون تاريخ، الجزء السابع: ١٦٩ .

(١٨) انظر: روح المعاني، طبعة دار إحياء التراث العربي، بيروت - لبنان، بدون تاريخ، الجزء السابع: ٢٠٩ .

**الثانية:** أن الالتفات ورد في نهاية الحديث عن سيدنا إبراهيم عليه السلام ، ثم استكمل السياق حديثه عن بقية الأنبياء ، وكان من المتوقع - على مستوى الظاهر - أن يقع هذا الالتفات ، أو يتوجه مولانا عز وجل إلى الحديث مع نبيه ﷺ ، بعد استكمال الحديث عن الأنبياء السابقين .

أما فيما يخص النقطة الأولى ، فإن من مستلزمات التلطف والتأنيس والتسلية ، أن يسوق مولانا عز وجل للنبي ﷺ ، ما حدث للأنبياء . وإذا كان السياق القرآني ، لم يدخل في تفاصيل ابتلاء الرسل والأنبياء ، فإن مجرد استدعائهم ، يذكّر بما لاقوه مع أقوامهم من عنت وشقاء وتعب . وفي هذا تصبير للنبي ﷺ . وتأكيده لهذا الطرح ، ختم الحق سبحانه وتعالى السياق ، بحث النبي ﷺ بالاعتداء بهؤلاء الرسل والأنبياء ، كما رأينا في الآية السابقة . ونستطيع أن نفهم الاعتداء على الوجهين : الاعتداء في الصبر والتحمل ، والاعتداء في طرق الدعوة . لذا فقد وقع ترابط شديد بين موضع الالتفات في الآية الثالثة والثمانين ، والآية التسعين .

والإتيان بموضع الالتفات ، قبل نهاية الحديث عن سيدنا إبراهيم عليه السلام ، وتحديدًا بعد الحجج التي أُيِّد بها مولانا خليله عليه السلام، يهدف إلى القول : إن الذي أُيِّد إبراهيم خليل الرحمن ، هو هو القادر على تأييدك يا محمد ﷺ ، فلا تجزع ولا تيأس ، وإذا كنا قد آتينا إبراهيم الحجج ، بحكمة وعلم ، فإننا سنعطيهما لك بحكمة وعلم كذلك ، وهو المفهوم من قول البقاعي " تنبيهًا على أن حَجَبَهُ الدليل عمن يشاء لِحِكْمِ أَرَادَهَا سبحانه " . ومن هنا ، فإن الفاصلة، قد أدت وظيفة مزدوجة : في عهد سيدنا إبراهيم عليه السلام، وفي عهد النبي محمد ﷺ .

والسؤال : لماذا جاء الالتفات ، مرتبطًا بسيدنا إبراهيم عليه السلام ؟ ويتمثل الجواب في أن خليل الرحمن إبراهيم عليه السلام ، هو أبو الأنبياء ، وأكثرهم ابتلاء ، أُمّ تكفّه حادثة الذبح ، الخاصة بسيدنا إسماعيل عليه السلام ؟! . وعليك أن تنظر إلى نجاة إسماعيل عليه السلام من الذبح ، ونجاة عبد الله بن عبد المطلب - والد النبي ﷺ - من الابتلاء نفسه ، لتدرك مدى التلاقي والتقارب .

ثم إن سيدنا إبراهيم عليه السلام ، ووجهه بشقى التحديات المختلفة مع قومه ؛ فهناك المحاجة العقيدية ، التي تمثلت في محاجة النمرود حول مقدرة الله في الإحياء والموت ، ثم المحاجة الكونية ، المتمثلة في الكواكب والشمس والقمر ، ثم الابتلاء بالأذى المادي من خلال إلقائه في النار ، وأخيرًا الابتلاء الأبوي الروحي الفطري في ذبح سيدنا إسماعيل عليه السلام .

وإذا كان هذا الالتفات ، قد حمل بشارة النصر ، وإعطاء الله سبحانه وتعالى حججه لنبيه محمد ﷺ ، وبخاصة أن سورة الأنعام مكية ، مما يعني أنها في بداية الدعوة ، فإن بنية الالتفات توحى - على الجانب الآخر - بترهيب المشركين - بقراءتهم لمثل هذه المواضع التي تزف بشرى النصر - وتحويفهم ، وإيقانهم بأنهم لا محالة مهزومون .



ومن ناحية الإشعاعات اللغوية ، علينا أن نتأمل دال (رب) ، الذي يشير إلى صفات الربوبية ، التي تعم المؤمن والكافر ، ولا سيما أن السياق يتناول حالة الأنبياء – وبخاصة الخليل إبراهيم عليه السلام ، والنبي ﷺ – مع أقوامهم ، الكافر منهم والمؤمن . ومن ثم ، لم يقل مولانا جل وعلا : (إِنَّ إِهْلَكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ) . كما أن صفات الربوبية ، تُعدُّ عامل جذب مهمًا لغير المسلم للدخول في الإسلام .

وإذ يأتي هذا الالتفات في هذا الموضوع من السياق ، متوسطًا الحديث عن الأنبياء ، فإنه يشير إلى مكانة النبي ﷺ ، بين الأنبياء ، كما يعني احتواء الإسلام لكل الرسالات السابقة ، مع الإضافة إليها ، مما يعني أن دين الله واحد . أي أن هذا الموضوع ، يعد رمزًا لريادة النبي وأُمَّته للأمم السابقة . كل هذه المعاني وغيرها كثير ، حملتها بنية الالتفات في الموضوع السابق . وهذا هو المطلوب ، أن نضيف إلى ما قدمه الأجداد من رؤى وومضات لغوية ، تمثل لنا –الآن – مصباحًا ، نستهدي برشده ، ونتقوى بعباءاته على إثراء ما قدموه لنا .

وتتمثل ثاني صور الالتفات ، في الانتقال من التكلم إلى الغياب . وهنا يقول المولى عز وجل : ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ (الإسراء : ١) . وبتدقيق النظر في الآية الكريمة ، نجد أنها تحتوي على ثلاث صور من صور الالتفات : من الغياب إلى التكلم (سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ – بَارَكْنَا) ، ثم من التكلم إلى الغياب (بَارَكْنَا – لِنُرِيَهُ) ، ثم من التكلم إلى الغياب (آيَاتِنَا – إِنَّهُ هُوَ) . وعلى قراءة الحسن بالياء في قوله (لِنُرِيَهُ) (١٩) ، تضاف صورة أخرى من صور الالتفات ، لتصبح أربع صور ، من الغياب إلى التكلم (ليريه – آيَاتِنَا) .

وفي ضمير الهاء في قوله (إنه) ثم اختلاف بين المفسرين ، أيعود على المولى عز وجل ، أم على الرسول ﷺ ؟ . وقبل الدخول إلى إظهار بلاغة الالتفات في تلك الصور ، ننظر – أولاً – ماذا قالت التفاسير في الضمير العائد والالتفات .

يقول الزمخشري في الضمير : " (إنه هو السميع) لأقوال محمد (البصير) بأفعاله ، العالم بتهذبا وخلصها ، فيكرمه ويقربه على حسب ذلك " (٢٠) . وفي الالتفات يقول : "ولقد تصرف الكلام على لفظ الغائب والمتكلم ،

(١٩) انظر: تفسير البيضاوي ، وعليه حاشية، محيي الدين شيخ زاده ، ضبط وتصحيح وإخراج آيات ، محمد عبد القادر شاهين، دار الكتب العلمية ، بيروت – لبنان ، الطبعة الأولى ، ١٤١٩ هـ ، ١٩٩٩ م : ٣٥٠ . وكذلك الألوسي ، روح المعاني ، الجزء الخامس عشر : ١٤ . وكذلك الزمخشري ، الكشاف ، الجزء الثالث : ٤٩٣ .

(٢٠) انظر : الكشاف ، الجزء الثالث : ٤٩٣ .

فقيل : أسرى ثم باركنا ثم ليريه ، على قراءة الحسن ، ( ثم من آياتنا ) ، ( ثم إنه هو ) ، وهي طريقة الالتفات التي هي من طرق البلاغة " (٢١) .

وهنا يقول الإمام البقاعي : " ولما كان المعول عليه غالبًا في إدراك الآيات ، حس السمع والبصر ، وكان تمام الانتفاع بذلك إنما هو بالعلم ، وكان سبحانه قد خص هذا النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم من كمال الحس ، بما يعد معه حس غيره عدما ، عبر عن ذلك بقوله تعالى : (إنه) أي هذا العبد الذي اختصناه بالإسراء (هو) أي خاصة . (السميع) أي أذنًا وقلبًا بالإجابة لنا والإذعان لأوامرنا . (البصير) بصيرًا وبصيرة بدليل ما أخبر به من الآيات . وصدقه من الدلالات ، حين نعت ما سألوه عنه من بيت المقدس ، ومن أمر غيرهم ، وغيرهما مما هو مشهور في قصة الإسراء " (٢٢) . ويقول في بنية الالتفات : " وجعل الالتفات لتعظيم الآيات والبركات " (٢٣) .

وفي هذا الضمير يقول البيضاوي : " (إنه هو السميع) لأقوال محمد ﷺ ، (البصير) بأفعاله ، فيكرمه ويقربه على حسب ذلك " . كما يقول في الالتفات : " وصرف الكلام من الغيبة إلى التكلم ، لتعظيم تلك البركات والآيات " (٢٤) . ونفهم من هذا ، أن الضمير في تفسير البيضاوي ، يعود على المولى عز وجل ، أما الالتفات ، فقد قال فيه ما قاله البقاعي .

ويقول الألويسي : " (إنه هو السميع البصير) على تقدير كون الضمير له تعالى ، كما هو الأظهر وعليه الأكثر ، فليطابق قوله تعالى (بعده) ، ويرشح ذلك الاختصاص ، بما يوقع هذا الالتفات أحسن موقعه ، وينطبق عليه التعليل أتم انطباق ؛ إذ المعنى قَرَبَهُ وَحَصَّهُ بهذه الكرامة ؛ لأنه سبحانه مطلع على أحواله ، عالم باستحقاقه لهذا المقام ... وأما على تقدير كون الضمير للنبي ﷺ ، كما نقله أبو البقاء عن بعضهم ، وقال : أي السميع لكلامنا البصير لذاتنا ، وقال الجلي : إنه لا يبعد ، والمعنى عليه ، إن عبدي الذي شرفته بهذا التشريف ، هو المستأهل له فإنه السميع لأوامري ونواهي العامل بهما ، البصير الذي ينظر بنظرة العبرة في مخلوقاتي ، فيعتبر . أو البصير بالآيات التي أريناه إياها ، كقوله تعالى (ما زاغ البصر وما طغى) {النجم: ١٧} ، فقيل لمطابقة الضمائر العائدة عليه ، وكذا لما عبر به عنه من قوله : (بعده) ، وقيل : للإشارة إلى اختصاصه ﷺ بالمنح والزلفى وغيوبه شهوده في عين بي يسمع ويبيصر " (٢٥) .

(٢١) انظر : السابق ، الجزء نفسه ، الصفحة نفسها .

(٢٢) انظر : نظم الدرر ، الجزء الحادي عشر : ٢٩١ ، ٢٩٢ .

(٢٣) انظر : السابق ، الجزء نفسه : ٢٩١ .

(٢٤) انظر : تفسير البيضاوي : ٣٥٠ ، ٣٥١ .

(٢٥) انظر : روح المعاني ، الجزء الخامس عشر : ١٣ ، ١٤ .

وفي الضمير يقول ابن عاشور: "ف قوله (إنه هو السميع البصير) الأظهر أن الضميرين عائدان إلى النبي ﷺ . وقال بعض المفسرين ، واستقره الطيبي . ولكن جمهرة المفسرين ، على أنه عائد إلى الله تعالى . ولعل احتماله للمعنيين مقصود" (٢٦) .

ويقول في الالتفات: "وفي تغيير الأسلوب من الغيبة، التي في اسم الموصول وضميريه ، إلى التكلم في قوله (باركنا...ولنزيه من آياتنا) ، سلوك لطريقة الالتفات المتبعة كثيراً في كلام البلغاء. والالتفات هنا امتاز بلطائف : منها أنه لما استحضرت الذات العلية بجملة التسييح وجملة الموصولية ، صار مقام الغيبة، مقام مشاهدة، فناسب أن يغيّر الإضمار إلى ضمائر المشاهدة ، وهو مقام التكلم . ومنها الإيماء إلى النبي عليه الصلاة والسلام، عند حلوله بالمسجد الأقصى ، قد انتقل من مقام الاستدلال على عالم الغيب إلى مقام مصيره في عالم المشاهدة . ومنها التوطئة والتمهيد إلى محمل معاد الضمير في قوله (إنه هو السميع البصير) ، فيتبادر عود الضمير إلى غير من عاد إليه ضمير (نزيه)؛ لأن الشأن تناسق الضمائر، ولأن العود إلى الالتفات بالقرب ليس من الأحسن" (٢٧) .

وعلى أية حال ، فإن ثمة لطائف - إضافة لما سبق - تتعلق ببنية الالتفات ، بصورها الثلاثة أو الأربعة ، على هذا النحو :

أولاً: أن بنية الالتفات ، اقتضت على الانتقال في الخطاب بين الحق سبحانه وتعالى ، والنبي ﷺ ، فلم يتدخل فيها ملك ولا بشر، فهي رحلة نورانية ، مقصورة على النورين: الإلهي والنبوي . ويستفاد من هذا ، التعرف على مكانة النبي ﷺ عند ربه ، وبين الأنبياء ، وبالتالي وجوب الاقتداء به ، صلوات ربي وتسليماته عليه ، في شئون الحياة كلها .

ثانياً: أن الالتفات ، جاء في أمر معجز ، مما يؤكد القدرة المطلقة للمولى عز وجل ، ويدحض كذب الكذابين ويبطل افتراء المفتريين، ابتداء من كفار مكة وحتى الآن ، وسيستمر هذا إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها (٢٨) .

ثالثاً: أن الالتفات ، جمع بين مكانين : المسجد الحرام والمسجد الأقصى (٢٩) . ومن هذه اللطيفة ، تتفرع نكات أخرى : أولها أن هذا الجمع ، يدل على أن المسجد الأقصى من أعلى وأعز وأطهر الأماكن في قلوب المسلمين .

(٢٦) انظر : التحرير والتنوير ، الدار التونسية للنشر ، ١٩٨٤ م ، الجزء الخامس عشر : ٢٢ .

(٢٧) انظر : السابق ، الجزء نفسه : ٢١ ، ٢٢ .

(٢٨) وهذا ما نؤكد مراراً وتكراراً ، وهو أن القرآن الكريم ليس منتجاً ثقافياً مرتبطاً ببيئة وثقافة معينة ، وهو ما ادعاه نصر حامد أبو زيد وغيره من متفلسفي العصر الحديث. انظر في ذلك ، نصر حامد أبو زيد : مفهوم النص - دراسة في علوم القرآن، الهيئة العامة المصرية للكتاب ، ١٩٩٠م : ٥٩ ، ٦٠ ، ٧٦ ، ١٥٩ .

ثانيها أن الالتفات ، جاء على مراد الترتيب الزمني ، حيث المسجد الحرام أولاً ، ثم المسجد الأقصى ثانيًا . ثالثها أن الالتفات كان إيداناً وتوطئة بأن المسجد الأقصى سيكون له نصيب وافر من هذه الرحلة القدسية، وهو ما فهم بعد ذلك، إذ كان أول قبلة للمسلمين . رابعها أن ذكر النبي ﷺ في بنية الالتفات ، ثم إمامته للأنبياء في المسجد الأقصى ، يعد رمزاً لعلو مكانته عند ربه ، وبالتبعية علو مكانة أمته كذلك ، وهو ما يفهم من قوله سبحانه وتعالى ، في حق حبيبه ﷺ : ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴾ (النساء : ٤١) (٣٠) . وكذلك قوله في حقه ﷺ ، وحق أمته : ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ... ﴾ (البقرة : ١٤٣) ، وكذلك قوله : ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ... ﴾ (آل عمران : ١١٠) .

رابعاً: وهي لطيفة عامة ، أن الالتفات ، لما كان يعني لفت الانتباه إلى أمر ما ، أو التركيز عليه ، فإنه يشير هنا إلى وجوب الاهتمام بكل ما ورد من مضامين ، في اللطائف السابقة ، وإذا كان ذلك كذلك ، فقد حققت بنية الالتفات الأهداف والمرامي ، التي جاءت لتثبتها . وفي الوقت نفسه ، استفاد القارئ المتلقي لكتاب الله عز وجل ، واضطلع على ضرب مهم من جوانب الإعجاز القرآني .

كما تتمثل الصورة الثالثة من صور الالتفات ، في الانتقال من التخاطب إلى التكلم . وفي هذا يقول المولى عز وجل : ﴿ نَبِيٌّ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ (الحجر: ٤٩) . ومن الواضح أن بنية الالتفات ، تتجه دلالتها من منطقة المخاطب (نبيي) ، إذ يكمن الفاعل في الضمير المستتر (أنت) ، العائد على النبي ﷺ ، إلى منطقة التكلم ، الممثلة في اسم (أَنْ) ضمير المتكلم (الياء) ، ثم في ضمير الفصل (أنا) ، العائد على رب العزة جل في علاه . وروى ابن المبارك بإسناده ، عن رجل من أصحاب النبي ﷺ أنه قال: طلع علينا رسول الله ﷺ من الباب الذي دخل منه بنو شيبه ، ونحن نضحك ، فقال : ألا أراكم تضحكون ! ثم أدبر حتى إذا جاء عند الحجر ، رجع

(٢٩) ولما كانت رحلة الإسراء والمعراج ، قبل بناء المسجد النبوي الشريف ، إذن يضاف إلى هذين المسجدين المقدسين - تقديساً واحتراماً وتعظيماً - المسجد النبوي الشريف .

(٣٠) لما سمع النبي هذه الآية من قراءة ابن مسعود، إذ أمره بالقراءة ، بكى ﷺ ، من فرط خشيته لله عز وجل ، وعظم الموقف . انظر: الطبري ، جامع البيان عن تأويل أي القرآن ، تحقيق الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركي ، بالتعاون مع مركز البحوث والدراسات العربية والإسلامية ، دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع، بدون تاريخ ، الجزء السابع : ٤٠ . ومن الطبيعي والمعروف ، أن رحلة الإسراء والمعراج ، فيها من الدروس والعبر ما فيها ، ولكن تناولى يقتصر - هنا - على ما تحمله بنية الالتفات من معان ودلالات ومضامين ثرية .

إلينا القهقري فقال: "إني لما خرجت جاء جبريل عليه السلام، فقال: يا محمد، يقول الله تعالى عز وجل: لم تُقنط عبادي؟ ﴿نَبِيُّ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْعَفْوُ الرَّحِيمُ﴾ (٣١).

وإذا كان هذا هو سبب نزول الآية الكريمة، فإن بنية الالتفات، تعد تنبيها للنبي ﷺ، بالأل يقنط أمته من رحمة الله، كما جاء في السؤال. وما يدخل في الالتفات، والتنبيه أيضا، أن الحق سبحانه وتعالى، جاء بالمغفرة والرحمة، قبل العذاب، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ﴾.

وهذا الالتفات، وإن جاء في إطار مخاطبة النبي ﷺ، فإنه يمثل التفاتاً لكل من يقرأ القرآن الكريم. ذلك أن سبق المغفرة والرحمة للعذاب، من شأنه أن يعطي طمأنينة للمؤمنين، ويحفز غيرهم على اعتناق الإسلام. كما أن اقتران العذاب بالمغفرة والرحمة، من شأنه ألا يبعث على التراخي في العبادة، أو التواكل، بذريعة أن الله غفور رحيم؛ فالله غفور رحيم لمن عمل سيئة ثم تاب منها، وشديد العقاب لمن أصر على الظلم والخسران، حتى وإن كان مسلماً.

ويقول ابن عاشور: "هذا تصدير لذكر القصص التي أريد من التذكير بها، الموعظة بما حل بأهلها، وهي قصة لوط وقصة أصحاب الأيكة وقصة ثمود.

وابتداء ذلك بقصة إبراهيم عليه الصلاة والسلام، لما فيها من كرامة الله له تعريضاً بالمشركين؛ إذ لم يقتفوا آثاره في التوحيد. وابتداء الكلام بفعل الإنباء لتشويق السامعين إلى ما بعده... وإنما قدم الأمر بإعلام الناس بمغفرة الله وعذابه ابتداء بالموعظة الأصلية، قبل الموعظة بجزئيات حوادث الانتقام من المعاندين، وإنجاء من بينهم من المؤمنين؛ لأن ذلك دائر بين أثر الغفران وبين أثر العذاب" (٣٢).

ولما كانت هذه الآية، قد وردت في بداية القصص القرآني، فإن الالتفات فيها، يحمل الوعد لمن آمن من هذه الأمم، وهو المفهوم من قوله سبحانه: (أَنِّي أَنَا الْعَفْوُ الرَّحِيمُ)، كما يحمل الوعيد لمن لم يؤمن منهم، وهو المفهوم من قوله تعالى (وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ)، بما تعلق به هذه الآية، مع سابقتها بفعل بنية العطف، التي أدخلتها في مضمون الالتفات.

وليس بخاف، أن الوعد والوعيد كليهما، يتجه مضمونهما إلى المؤمنين وغيرهم، في عهد النبي ﷺ، وينسحب هذا إلى يوم أن يرث الله الأرض ومن عليها. ومن ثم، فإن بنية الالتفات، قد أدت دوراً مهماً، في إبراز مغفرة الله سبحانه وتعالى ورحمته، كما أعلنت عن شدة عذابه وتنكيله بالمخالفين.

(٣١) انظر: النيسابوري، أسباب النزول، تحقيق ودراسة كمال بسيوني زغلول، دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١١ هـ - ١٩٩١ م: ٢٨٣. والحجر، هو حجر سيدنا إسماعيل، بجوار الكعبة، وهو يعد من الكعبة.

(٣٢) انظر: التحرير والتنوير، الجزء الرابع عشر: ٥٦، ٥٧.

ثم انظر إلى التأكيد ب(إنّ) وضمير الفصل (أنا) في جانب المغفرة والرحمة ، وإلى (أنّ) وضمير الفصل (هو) ، في جانب العذاب ، وذلك بهدف الترغيب والترهيب .

وتبدو الصورة الرابعة من صور الالتفات ، في الانتقال من الخطاب إلى الغياب . يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ (الدخان : ٤) . وقد وردت هذه الخاتمة في سياق قوله تبارك وتعالى : ﴿ حَمَّ \* وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ \* إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ مُبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ \* فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ \* أَمْرًا مِنْ عِنْدِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ \* رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ (الدخان : ١-٤) .

وإذا تأملنا هذه الآيات الكريمة ، ألفيناها تضم صورتين من صور الالتفات : الأولى الالتفات من التكلم في ضمير(نا) ، العائد إلى المولى عز وجل ، في الآية الثانية والرابعة ، إلى المخاطب / الرسول ﷺ ، في قوله (ربك) في الآية الخامسة ، ثم تأتي الصورة الثانية ، في الانتقال من المخاطب (ربك) ، إلى الغائب في قوله (إنه) المتصدر للجملة الخاتمة.

ومعنى هذا ، أن بنية الالتفات هنا، اقتضت كذلك على الخطاب الإلهي النبوي. وإذا جئنا إلى منطقة التكلم، وجدنا أنها تحتوي على ثلاث لقطات : اللقطة الأولى تتمثل في قوله سبحانه : (إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ) . وكما هو واضح ، أن هذه اللقطة منوطة بإنزال القرآن الكريم ، من قبل الحق سبحانه وتعالى ، وهو ما يدحض مزاعم المشركين ، من أن القرآن ليس من عند الله، كما يتوافق هذا مع قوله جل وعلا: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ (الحجر : ٩) ، وقوله : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلًا ﴾ (الإنسان : ٢٣) ، وغير ذلك من الآيات الكثيرة في القرآن الكريم .

كما تتمثل اللقطة الثانية في قول الحق سبحانه وتعالى : (إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ) . وهنا نرى أن الحق سبحانه وتعالى ، قدّم الإنذار على الرحمة، وهو ما يتوافق مع ما سيأتي في تضاعيف السورة الكريمة ؛ إذ إنها سورة مكية ، تتسم بالشدة والرهبنة وأخذ القلوب . كما تقدم صورًا لما حدث للأمم السابقة ، وما آل إليه فرعون وقومه . أي أنها تقوم في أسها على التحذير والتنبية والإنذار ، لمشركي العرب من ناحية ، ومشركي الإنسانية في كل مكان وزمان من ناحية أخرى .

وعن سورة الدخان يقول سيد قطب: "إنها سورة تهجم على القلب البشري من مطلعها إلى خاتمها ، في إيقاع سريع متواصل. تهجم عليه بإيقاعها ، كما تهجم عليه بصورها وظلالها المتنوعة المتحدة في سمت العنف والتتابع . وتطوف به في عوالم شتى بين السماء والأرض ، والدنيا والآخرة ، والجحيم والجنة ، والماضي والحاضر، والغيب

والشهادة ، والموت والحياة، وسنن الخلق ونواميس الوجود... فهي - على قصرها نسبياً - رحلة ضخمة في عالم الغيب وعالم الشهود" (٣٣) .

أما اللقطة الثالثة ، فتبدو في قوله جل في علاه : ( إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ) . وهنا تتجلى العظمة الإلهية في أبهى صورها ، إذ إن الحق سبحانه وتعالى ، تفضل على البشرية بإنذارها من وقت لآخر ، وما كان له سبحانه أن يؤاخذ الناس أو يعذبهم، دون أن يرسل لهم من يعرفهم به . وهو ما يتوافق مع قوله سبحانه : ﴿مَنْ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ (الإسراء: ١٥) . هذه هي منطقة التكلم ، بما فيها من دلالات أخاذة .

أما منظر الخطاب ، فتتمثل في قوله (رحمة من ربك) ، وفيها لطائف : الأولى أن دال (رحمة) مرتبط بالتركيب السابق ( إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ) (٣٤) . وفي هذا ما يدل على أن المولى عز وجل ، ما يريد إلا رحمة الخلق ؛ فهو غني عن عذاب العباد ، يفرح بتوبة العبد أكثر من العبد نفسه ؛ لأنه يعلم مدى شدة عذابه ، لذلك أنزل القرآن الكريم رحمة بهم .

ويقول سيد قطب : " وما تتجلى رحمة الله بالبشر كما تتجلى في تنزيل هذا القرآن ، بهذا اليسر، الذي يجعله سريع اللصوق بالقلب ، ويجعل الاستجابة له تتم كما تتم دورة الدم في العروق . وتحول الكائن البشري إلى إنسان كريم ، والمجتمع البشري إلى حلم جميل ، لولا أنه واقع تراه العيون ! " (٣٥) .

**الثانية:** أن دال (الرحمة) يعد جسراً ومنجاة للعباد ، بين الحق سبحانه وتعالى ، والنبي ﷺ ، إذ ورد في منطقة تجمع - لغوياً - بين مولانا عز وجل والنبي ﷺ ، في قوله (ربك) . أي أنه إذا كانت الرحمة سمة إلهية ، فإن التوصل إليها ومعرفتها ، لم يكن ليتأتى إلا بإرسال حضرة النبي ﷺ . ولذا ، ولشدة حب مولانا لحبيبه صلوات ربي وتسليماته عليه ، أطلق صفة الرحمة نفسها على شخصه ﷺ ، فقال : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ (الأنبياء: ١٠٧) . كما يتعلق بهذا ، ما قاله الحق سبحانه وتعالى لحبيبه ﷺ ، جامعاً بين التبشير والإنذار : ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ ﴾ (البقرة: ١١٩) .

(٣٣) انظر : في ظلال القرآن ، دار الشروق ، بيروت ، الطبعة الثانية والثلاثون ، ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٣ م ، المجلد الخامس : ٣٢٠٧ .

(٣٤) أجاز اللغويون خمسة أوجه متساوية الرجحان لإعراب (رحمة) ، منها أنها مفعول به لاسم الفاعل (مرسلين) . وهذا ما أعتمدناه هنا . انظر : محي الدين الدرويش ، إعراب القرآن الكريم وبيانه ، دار الإرشاد، حمص - سوريا ، الطبعة الثالثة ، ١٤١٢هـ - ١٩٩٢ م ، المجلد التاسع : ١١٨ .

(٣٥) انظر : في ظلال القرآن ، المجلد الخامس : ٣٢٠٩ .

أما اللطيفة الثالثة ، فتكمن في دال (ربك) ، وفيها نكتتان : الأولى أن إضافة (رب) إلى ضمير المخاطب (الكاف) الذي يعود إلى النبي ﷺ ، يحمل من حب الحق سبحانه وتعالى لحبيبه ، وتلفظه به ومؤانسة له ، ما لا يستطيع أي تركيب لغوي أن يعبر عنه . وهذا هو دأب القرآن الكريم : إيجاز وإعجاز .

الثانية : أن مولانا عز وجل قال : (ربك) ولم يقل : (إلهك) ؛ ليفهمنا أن الرحمة تتعلق بالربوبية . وهنا يقول ابن عاشور : " وإيراد لفظ الرب في قوله (من ربك) إظهار في مقام الإضمار ؛ لأن مقتضى الظاهر أن يقول : رحمة منا . وفائدة هذا الإظهار الإشعار بأن معنى الربوبية يستدعي الرحمة بالمربوبين " (٣٦) .

وفي إضافة دال (رب) إلى ضمير (الكاف) ، وصرف الكلام إلى النبي ﷺ ، بطريق الالتفات يقول ابن عاشور كذلك : " ثم إضافة (رب) إلى ضمير الرسول ﷺ ، صرف للكلام عن مواجهة المشركين إلى مواجهة النبي ﷺ بالخطاب ؛ لأنه الذي جرى خطابهم هذا بواسطته ، فهو كحاضر معهم عند توجيه الخطاب إليهم ، فيصرف وجه الكلام تارة إليه ، كما في قوله (يوسف أعرض عن هذا واستغفري لذنبك) . وهذا لقصد التنويه بشأنه بعد التنويه بشأن الكتاب الذي جاء به " (٣٧) .

ويُفهم من ذلك ، أنك عندما تسمع دال (الرب) ، تصرفه إلى الخلق كل الخلق ، ولذا قال ربنا في سورة الفاتحة : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ (الفاتحة: ٢). أما لفظ الجلالة (الله) ، بما يتعلق به من صفات وأسماء حسنى ، فهو مصروف إلى المؤمنين (٣٨) .

الثالثة: أن هذه الإضافة تطلعنا على سر عظيم في كيفية تعاملنا مع النبي صلى الله عليه وسلم ، إذ لا يُتَوَصَّلُ إلى الله إلا برسول الله ﷺ . وهذا مفهوم من الآيات القرآنية الكثيرة ، التي ربطت طاعة الله بطاعة رسوله صلوات ربي وتسليماته عليه . وعليك - أيها القارئ الكريم - أن تقرأ معي أمثلة لهذا . يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ ... الآية ﴾ (النور : ٥٤) ، وقوله : ﴿ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ (آل عمران : ٣١) ، وقوله : ﴿ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ ... الآية ﴾ (آل عمران : ٣٢) . وانظر إلى تتابع الآيات التي تربط طاعة الله بطاعة الرسول ﷺ .

وفي هذا ما يدحض أباطيل وأكاذيب من يسمون أنفسهم بالقرآنيين ، الذين لا يعملون - إذا عملوا - إلا بما ورد في القرآن الكريم ، وقد نسوا أن القرآن الكريم نفسه هو الذي قال : ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ (الحشر : ٧) (٣٩) .

(٣٦) انظر : التحرير والتنوير ، المجلد الخامس والعشرين : ٢٨١ .

(٣٧) انظر : التحرير والتنوير ، المجلد الخامس والعشرين : ٢٨١ .

(٣٨) انظر في توحيد الألوهية والربوبية ، صالح بن فوزان : عقيدة التوحيد ، مكتبة دار المنهاج للنشر والتوزيع ، المملكة العربية السعودية - الرياض ، الطبعة الأولى ، ١٤٣٤هـ : ٢٢ - ٥٣ .



كما تبدو المنطقة الثالثة من مناطق بنية الالتفات في منطقة (الغياب)، وذلك في قوله: ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾. وفي الحقيقة أن هذه المنطقة، ما هي إلا تكتيف دلالي للمنطقتين السابقتين: التكلم والمخاطبة؛ لأن الهيمنة في حضور الضمائر، تعود إلى المولى عز وجل { إِنَّا - رَبِّ - (إِنَّهُ هُوَ) }، وعليك أن تتأمل هذه اللفتة الإعجازية، المتمثلة في توسط دال (رب) للضمائر. وكأنه حاضن لها، يحمل هو أولاً في ذاته مضمون الرحمة، لتعلقه بها في هذا الموضع (رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ)، ثم يشع بنورانيته على الجانبين، فيلقي بظلال الإنزال والإنذار والإرسال على الجانب الأيمن (إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ، إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ، إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ)، وبظلال السمع والعلم على الجانب الأيسر (إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ).

إن تردد الضمائر التي تعود إلى الحق سبحانه وتعالى في هذه المنطقة (الغياب)، بعد ظهورها فيما سبق، في التكلم، وفي دال (رب) في الخطاب، ليؤكد اشتغال ما يناط بها من صفتي السمع والعلم، لكل ما مر من مضامين. أي أن الحق سبحانه وتعالى، عندما أنزل القرآن الكريم؛ لينذر به، ويرحم به في الوقت نفسه، إنما حدث هذا تحت سمعه بما يقولون في القرآن وعنه، من أكاذيب وافتراءات وغيرها، وعلمه بنياتهم، وما سيؤول إليه أمر هذا الدين من انتشار وانتصار، وما سيؤول إليه حال الكافرين من خيبة وخسران (٤٠).

على هذا، بدت بنية الالتفات في هذه الآيات الكريمة، بداية من الآية الثانية، حتى الآية الرابعة. ولأنها تعد لحمة واحدة، لا يمكن الفصل بين أجزائها، تناولتها كلها، بهدف الوصول إلى خاتمة الآية الرابعة، التي تعد في الحقيقة خاتمة الآيات الأربعة الأولى؛ لأنك بتأملك لتماسك هذه الآيات، تجدك مضطراً إلى متابعة القراءة، حتى تصل إلى منطقة الاستراحة والهدوء النفسي والمعنوي في قوله (إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ)؛ وذلك لتعلق المعاني بعضها ببعض، بما لا يدع مجالاً للتوقف أو الفصل بينها. وهذا ما قلته في مقدمة هذه الدراسة، من أن هناك بعض الخواتم - إن لم يكن الكثير منها - لا تعد نهايات، أو وقفات لمواضعها فحسب، بل تعد خواتم لأكثر من آية، أو حتى مقطع طويل، مؤلف من عدة آيات. ومن هنا، فإن التعرض لها، لا بد أن يجبر الدارس على ربط تلك الخواتم بسوابقها من الآيات الكريمة، مثلما حدث في خاتمة قول الله عز وجل: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾، التي كررت ثماني مرات في سورة الشعراء (٤١).

(٣٩) من الطبيعي أن هذا الموضوع يحتاج إلى دراسة مستفيضة، ليس مجالها هنا، وإنما جاء الحديث عنها في سياق تناولي لبنية الالتفات).

(٤٠) انظر في مناسبة الفواصل لمضامين الآيات التي ترد فيها: الألوحي، روح المعاني، الجزء الخامس والعشرين: ١١٦. و ابن عاشور، التحرير والتنوير، المجلد الخامس والعشرين: ٢٨٢. وغيرها من التفاسير الأخرى.

(٤١) وانظر في هذا الضرب من الالتفات، سورة (الأعراف): ١٦٧.

وتبدو الصورة الخامسة من صور الالتفات ، في الانتقال من الغياب إلى التكلم ، وذلك في قول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ يَا مُوسَى إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ (النمل: ٩) . فإذا تأملنا الخاتمة (إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) ، وجدنا أن اسم (إِنَّ) الواقع في منطقة الضمير (الهاء) ، قيل فيه كلام كثير . يقول الطبري : " والهاء التي في قوله : (إنه) هاء عماد ، وهو اسم لا يظهر في قول بعض أهل العرب . وكان بعض نحوي الكوفة يقول : هي الهاء المجهولة ، ومعناها : إن الأمر والشأن ، أنا الله " (٤٢) . وقد ذهب القرطبي إلى أن الهاء بمعنى : الأمر والشأن كذلك ، غير أنه أضاف أن موسى قال : يا رب ، من الذي نادى ؟ فقال له : (إنه) أي : إني أنا المنادي لك ، أنا الله (٤٣) . وبعد أن ذهب الألوسي إلى أن (الهاء) تدل على ضمير الشأن ، قال : " وجوز أن يكون الضمير / يقصد (الهاء) راجعاً إلى ما دل عليه الكلام وهو المكلّم المنادي ، و(أنا) خير ، أي أن مكلّمك المنادي لك أنا " (٤٤) . وبعد عرض وجهة نظر التفاسير ، أرجح أن تكون (الهاء) ضمير يعود على المتكلم المنادي لموسى عليه السلام ، كما ذهب الألوسي . ويعضد هذا ، ما قاله القرطبي من أن موسى قال : يا رب من الذي نادى ؟ . ومعنى أن سيدنا موسى ينادي مولاه ، سائلاً هذا السؤال ، أن المنادي الأول كان مجهولاً لديه ، أي أن (الهاء) تقع في منطقة الغياب بالنسبة لسيدنا موسى عليه السلام ، ومن هنا أراد أن يستفسر . وعندما أجابه مولانا عز وجل ، جمع بين منطقتي الغياب والتكلم ، ملتفتاً من المنطقة الأولى (إنه) إلى الثانية (أنا) . فما الإشعاعات اللغوية التي ولدت هذا الالتفات ، ولماذا ؟ .

عود حميد إلى السياق الذي وردت فيه الخاتمة . يبدأ سياق الخاتمة من قول الله عز وجل : ﴿ إِذْ قَالَ مُوسَى لِأَهْلِهِ إِنِّي آنستُ ناراَ سآتِيكُمْ مِنْهَا جِبْرِ أَوْ آتِيكُمْ بِشَهَابٍ قَبَسٍ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ \* فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ \* يَا مُوسَى إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ . ونفهم من الآيات الكريمة ، أن سيدنا موسى عندما ذهب إلى النار ، لم يكن ليتوقع أن أحداً عندها ، أو أن أحداً سيناديه . ومن ثم ذهب ، ليستقصي الأمر أو يأتي من النار ما يفيد منه وأهله .

ويتبع السياق ، نجد أن الومضة اللغوية التي ولدت هذا الالتفات ، تكثفت في الفعلين المبنيين للمجهول (نُودِيَ) و (بُورِكَ) . وبحذف الفاعل ، دخل الفعلان دائرة الغياب ، من الذي نادى ، ومن الذي بارك ؟ . وعندما

(٤٢) انظر : جامع البيان عن تأويل آي القرآن ، الجزء الثامن عشر : ١٣ .

(٤٣) انظر : الجامع لأحكام القرآن ، تحقيق الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركي ، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت - لبنان ، الطبعة الأولى ، ١٤٢٧ هـ - ٢٠٠٦ م ، الجزء السادس عشر : ١٠٧ . وإلى هذا ، ذهب الزمخشري ، انظر :

الكشاف ، الجزء الرابع : ٤٣٣ . وابن عاشور ، انظر : التحرير والتنوير ، الجزء التاسع عشر : ٢٢٧ .

(٤٤) انظر : روح المعاني ، الجزء التاسع عشر : ١٦١ .

بدأ الحوار مع الله جل جلاله ، حُقَّ لسيدنا موسى أن يسأل مولاه : من الذي نادى ؟ لربما يكون المنادي غير الحق سبحانه وتعالى (٤٥) .

فأراد الحق سبحانه وتعالى أن يؤنس قلب نبيه موسى عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة وأتم التسليم ، بالأقول له (أنا الله) ، وإنما عاد إلى الوراثة ، ليجمع بين استفسار موسى عن المنادي المجهول بالنسبة له – عليه السلام – ورببه المتحدث معه الآن ، فقال : (إنه) أي الذي ناداك هو (أنا). وأيم الحق ، لكم تلقى سيدنا موسى هذه الجملة (إنه أنا الله)، وهو في قمة الحبور؛ فالمنادي الأول هو الله ، والمتحدث معه الآن هو الله ، والذي سيرسله هو الله ، والذي سيحفظه ويؤيده هو الله .

ثم انظر إلى ما أداه ضمير المتكلم (أنا) من الإشارة إلى العظمة ، والتوحد ، والتفرد ، ليدخل الطمأنينة على قلب سيدنا موسى ، في أنه لا أحد شريك مع الله ، فهو الذي بيده كل شيء . ثم استشعر معي – أيها القارئ العزيز – الهيبة والرغبة والرجفة من لفظ الجلالة (الله). وكل هذا بهدف تنقية قلب سيدنا موسى من الخوف ، والهيبة ، والتوكل إلا من الله وعلى الله . ثم تأمل مناسبة (العزيز الحكيم) لموضعها من الآية الكريمة . على هذا ، بدت بنية الالتفات من الغيبة إلى التكلم ، ممهّدة لمرحلة جديدة من حياة سيدنا موسى عليه السلام ، في الدعوة إلى الله عز وجل ، في أمن و يقين وتوكل على الله العزيز الحكيم .

كما تبدو الصورة الأخيرة من صور الالتفات ، في الانتقال من الغياب إلى التخاطب . يقول المولى عز وجل: ﴿ أَوْ يَأْخُذْهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴾ (النحل: ٤٧). ومن يتأمل ، يجد أن خطاب الغياب بدأ قبل هذه الآية في قول الله عز وجل : ﴿ أَفَأَمَّنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ يَحْسَفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ \* أَوْ يَأْخُذْهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴾ (النحل: ٤٥ ، ٤٦) . ولما كان المقام مقام تحذير وتنبيه ، لمن يعملون السيئات باطمئنان ، بدأ السياق بالاستفهام الذي يفيد التعجب من حال هؤلاء . وزيادة في التنكيل بهم ، إذا استمروا على ما هم عليه ، نَوَّعَ الحق سبحانه وتعالى في

(٤٥) وهنا يقول الطبري في تفسير قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَى \* إِيَّيْنَا أَنَا رَبُّكَ فَارْجِعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ﴾ (طه: ١١٢، ١١٣) : " حدثنا ابن حميد ، قال : حدثنا سلمه ، عن ابن إسحاق ، عن وهب بن منبه ، قال : خرج موسى نحوها ، يعني نحو النار ، فإذا هي في شجر من العُلَيْقِ – وبعض أهل الكتاب يقول : في عوسجة – فلما دنا استأخرت عنه ، فلما رأى استخارها رجع عنها ، وأوجس في نفسه منها خيفة ، فلما أراد الرجعة ، دنت منه ثم كَلِمَ من الشجرة ، فلما سمع الصوت استأنس " . انظر : جامع البيان ، الجزء السادس عشر : ٢٢ . ومن هنا ، جاء الالتفات جامعاً بين الغياب والتكلم ، لربط الجأش ، ونزع الخوف . وهذا من تفسير القرآن بالقرآن . ومن الثابت أن هذه القصة من أكثر القصص دوراناً في القرآن الكريم ، ويفسر بعضها بعضاً .

أشكال معاقبتهم ، سواء كان بالخسف ، أو بالعذاب الذي يأتيهم ، أو ينالهم عذاب الله وهم في أحسن حال ، أو على تخوف / أي نقص (٤٦) .

فإذا وصلنا إلى خاتمة الآية ، ألفيناها تلتفت في خطابها من الغياب في مخاطبة هؤلاء إلى التخاطب في قوله (فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ) . وهنا يقول البقاعي : " ولما كان التقدير : لم يأمنوا ذلك في نفس الأمر ، ولكن جهلهم بالله - لطول أناته وحلمه - غرهم ، سبب عنه قوله ، التفتاً إلى الخطاب استعطافاً : (فإن ربكم) أي المحسن إليكم بإهلاك من يريد وإبقاء من يريد (لرؤوف) ، أي بليغ الرحمة لمن يتوسل إليه بنوع وسيلة ، وكذا لمن قاطعه أتم مقاطعة ، وإليه أشار بقوله تعالى : (رحيم) أي فتسبب عن إمهاله لهم في كفرهم ، وطغيانهم مع القدرة عليهم ، العلم بأن تركه لمعالجتهم ما هو إلا لرأفته ورحمته" (٤٧) .

ومع أن السياق سياق إنذار وتحذير ، فإن بنية الالتفات التي وردت في الخاتمة ، تحتوي على لطائف عدة : الأولى أن إضافة الدال (رب) إليهم ، تدل على تعامله جل وعلا مع البشر بصفات الربوبية ، لا بصفات الألوهية ؛ لأن صفات الربوبية تشمل المؤمن وغيره ، كما بينت سابقاً . أما صفات الألوهية ، فهي تتجه وتنصب نعمائها على المؤمن فحسب .

الثانية : أن المراحل التي ذُكرت وصفاً لأحوال الكفار ، عند إيقاع العذاب بهم ، تدل على قدرة الله على ذلك ، كما تبعث على الخوف والرعب ، خلاف ما يتوقعونه هم من أمان ، ولذلك سيق السؤال : (أفأمن ..) .

الثالثة : أن مجيء الرأفة والرحمة في ختام الآية ، يعتمد على الحالة الأخيرة في قوله : (على تخوف) يعني ينقصهم شيئاً بعد شيء ، مما يعد إنذاراً وإمهالاً لهم . وهنا يقول الألوسي : " (فإن ربكم لرؤوف رحيم) جعله ابن بحر تعليلاً للأخذ على تخوف ، بناء على أن المراد به أخذهم على حدوث حالات يخاف منها ، كالرياح الشديدة والصواعق والزلازل ، لا بغتة فإن في ذلك امتداد وقت ومهلة ، يمكن فيها التلافي فكأنه قيل : أو يأخذهم على تخوف ولا يفاجئهم ؛ لأنه سبحانه رؤوف رحيم ، وذلك أنسب برأفته ورحمته جل وعلا... والتعبير بعنوان الربوبية مع الإضافة إلى ضمير الخطاب من آثار رحمته جل شأنه" (٤٨) .

الرابعة : أن الانتقال من الغياب إلى التخاطب ، فضلاً عن إضافة دال (رب) إلى (كم) التي تشير إلى الجمع ، مع وجود الرأفة والرحمة بالخاتمة على هذا النحو ، رغم أن السياق سياق تحذير وترهيب ، ليُشعر بفتح باب التوبة والرجوع إلى الله عز وجل ، كما أنه من شأنه كذلك ، ألا يصيب العصاة بضرب من الإحباط أو اليأس ، ذلك أن

(٤٦) وفي معنى هذا الدال، دار حوار بين سيدنا عمر بن الخطاب وشيخ من هزيل، فحواه أن تفسر دوال بعض القرآن الكريم، يمكن أن يعتمد على الشعر الجاهلي . انظر التفاسير المختلفة لهذه الآية الكريمة .

(٤٧) انظر : نظم الدرر ، الجزء الحادي عشر : ١٧١ ، ١٧٢ .

(٤٨) انظر : روح المعاني ، الجزء الرابع عشر : ١٥٣ .

الإنسان عندما يتعامل مع مخلوق مثله ، فمن الوارد أن يتصيد له أخطائه ، وأن يؤاخذه بجريرته . وإن عفا عنه ، فيكون هذا من باب التفضل ، ويظل هذا العمل جميلاً في العنق حتى الممات .  
بيد أن التعامل مع المولى عز وجل ، يختلف كل الاختلاف عن هذا ، فالله سبحانه هو الذي خلق الناس ، وأسبغ عليهم نعمه ظاهرة وباطنة ، وأرسل إليهم الرسل ، للتعرف عليه ، وأنزل الكتب حجة على عباده ، وهداية لهم في حياتهم . فمن آمن منهم نجا ، ومن كفر لم يعجل عقوبته ، وإنما أمهله وأنذره ، فإن عاد إليه قبله وفرح بعودته ، وإلا فهو وشأنه سبحانه وتعالى معه (٤٩) .

### الخاتمة والنتائج

على هذا النحو ، أدت بنية الالتفات ، دورها على أكمل وجه ، في إبراز الدلالة القرآنية ، بما حملته من مضامين ودلالات ، ينبغي الالتفات إليها ، والوقوف عليها ، والبحث عن مغزاها ، ومحاوله سير أغوارها . وفي رأبي ، أن هذه البنية ، تعد كنزا من كنوز القرآن الكريم ، فهي تؤدي المعنى وتقوم بالوظيفة ، بالاعتماد لا على أقل الدوال ، كما في كثير في البنى البلاغية ، ولكن بمجرد انتقال الخطاب من حالة إلى أخرى ، فما لها من روعة ، وما له من جمال ، وما أدهشه من كمال ، ما جاء عليه كتاب الله عز وجل (قرآنا الكريم)!!! . وقد توصل البحث إلى النتائج الآتية :  
أولاً: أن بنية الالتفات من البنى البلاغية التي لها دور كبير وفعال في إنتاج الدلالة القرآنية على أكمل ما يراد لها من إعجاز بلاغي .

ثانياً: أن أي دراسة للقرآن الكريم ينبغي أن تخصص في عنصر ما من العناصر المكونة للدراسات البلاغية ، ومع ذلك يمكن لها الاتكاء والاستعانة ببعض العناصر الأخرى في الكشف عن مناهج الإعجاز محل الدراسة .  
ثالثاً: أن القرآن الكريم يفسر بعضه بعضاً ، وهو ما أطلق عليه تفسير القرآن بالقرآن ؛ لذلك لا يجد الدارس مفرا من استدعاء بعض الآيات الأخرى المساعدة على عملية التحليل في الموضوع محل الدراسة . كأن يوضح معنى قرآنيًا بمعنى آخر في موضع من آية أخرى .

رابعاً: أن القرآن الكريم صالح لكل زمان ومكان ؛ لا تنتهي عجائبه ، ولا ينضب معينه ، ولا تضعف نصائحه وتوجيهاته وتعليماته بمرور الزمن ، أو تبدل الأمكنة ، أو اختلاف الناس... إلخ .

وأما ما أريد أن أوصي به في نهاية هذه الدراسة ، أن يتصدى ذوو الألباب الرشيدة والقلوب السليمة لكل من تسول له نفسه لمحاولة رفع القداسة ، أو نفي الإعجاز عن القرآن الكريم ؛ بهدف محاولة جره إلى أن يكون

(٤٩) وانظر في هذا الضرب من الالتفات : سورة (الأعراف) : ١٥٣ ، وسورة (الفرقان) : ٥٤ . وانظر في بلاغة الالتفات عموماً ، الدكتور أحمد سعد محمد : التوجيه البلاغي للقراءات القرآنية ، مكتبة الآداب ، الطبعة الأولى ، ١٤١٨ هـ - ١٩٩٨ م : ٣١٤ - ٣٣٧ .

كتابًا بشريًا ، ومن ثم يسهل التعامل معه والنفوذ إليه بالمناهج النقدية العلمية المبنية على العقل ، التي تهدف إلى نسف الثوابت الإسلامية ، بدعوى تجديد الخطاب الديني أو تجديد الفكر الديني (٥٠) .

## أهم المصادر والمراجع

- ١- أحمد سعد محمد : التوجيه البلاغي للقراءات القرآنية ، مكتبة الآداب ، الطبعة الأولى ، ١٤١٨ هـ - ١٩٩٨ م .
- ٢- الألوسي: روح المعاني، طبعة دار إحياء التراث العربي، بيروت - لبنان، بدون تاريخ .
- ٣- الباقلاني : إعجاز القرآن، تحقيق السيد أحمد صقر ، طبعة دار المعارف، القاهرة، الطبعة الثالثة ، بدون تاريخ .
- ٤- البقاعي : نظم الدرر ، دار الكتاب الإسلامي ، القاهرة ، بدون تاريخ .
- ٥- البيضاوي : تفسير البيضاوي ، وعليه حاشية ، محيي الدين شيخ زاده ، ضبط وتصحيح ، محمد عبد القادر شاهين ، دار الكتب العلمية ، بيروت - لبنان ، الطبعة الأولى ، ١٤١٩ هـ - ١٩٩٩ م .
- ٦- حازم القرطاجني : منهاج البلغاء وسراج الأدباء ، تقديم وتحقيق محمد الحبيب ابن الخوجة ، دار الغرب الإسلامي، بيروت - لبنان ، الطبعة الثالثة ، ١٩٨٦ م .
- ٧- الزركشي : البرهان في علوم القرآن ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، المكتبة العصرية - بيروت ، الطبعة الثانية ١٩٧٢ م .
- ٨- الزمخشري : الكشاف ، تحقيق ودراسة ، الشيخ عادل أحمد عبد الموجود، والشيخ علي محمد معوض ، حجازي ، مكتبة العبيكان، الطبعة الأولى ١٤١٨ هـ - ١٩٩٨ م .
- ٩- السكاكي : مفتاح العلوم ، تحقيق الدكتور عبد الحميد هندراوي ، دار الكتب العلمية ، بيروت - لبنان ، الطبعة الأولى ، ١٤٢٠ هـ .
- ١٠- سيد قطب : في ظلال القرآن ، دار الشروق، بيروت ، الطبعة الثانية والثلاثون ، ١٤٢٣ هـ - ٢٠٠٣ م .
- ١١- السيوطي : الإتيان في علوم القرآن ، تحقيق شعيب الإنرؤوط ، مؤسسة الرسالة - بيروت ، الطبعة الأولى ٢٠٠٨ م .

(٥٠) وقد بُذِلَتْ محاولات مستميتة في هذا الموضوع ، تَمَثَّلَتْ في أطروحات الجزائري المدعو : محمد أركون ، والمصريين : حسن حنفي ونصر حامد أبو زيد ، والسوريين : الطيب تزيبي ومحمد شحرور ، وكل مَنْ لَفَّ لِقَهُمْ . ومع ذلك باءت كل تلك المحاولات بالفشل .

- ١٢- صالح بن فوزان : عقيدة التوحيد ، مكتبة دار المنهاج للنشر والتوزيع ، المملكة العربية السعودية  
- الرياض ، الطبعة الأولى ، ١٤٣٤ هـ .
- ١٣- الطاهر بن عاشور : التحرير والتنوير ، الدار التونسية للنشر ، ١٩٨٤ م .
- ١٤- الطبري : جامع البيان عن تأويل آي القرآن ، تحقيق الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركي ،  
بالتعاون مع مركز البحوث والدراسات العربية والإسلامية ، دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع،  
بدون تاريخ .
- ١٥- العلوي : الطراز ، مطبعة المقتطف بمصر ، ١٩١٤ م .
- ١٦- القرطبي: الجامع لأحكام القرآن، تحقيق الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركي ، مؤسسة  
الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت - لبنان ، الطبعة الأولى ، ١٤٢٧ هـ - ٢٠٠٦ م .
- ١٧- محي الدين الدرويش: إعراب القرآن الكريم وبيانه، دار الإرشاد ، حمص - سوريا، الطبعة الثالثة،  
١٤١٢ هـ - ١٩٩٢ م .
- ١٨- ابن منظور : لسان العرب ، دار المعارف - مصر ، بدون تاريخ .
- ١٩- نصر حامد أبو زيد : مفهوم النص ، الهيئة العامة المصرية للكتاب ، ١٩٩٠ م .
- ٢٠- النيسابوري ، أسباب النزول ، تحقيق ودراسة كمال بسيوني زغلول ، دار الكتب العلمية -  
بيروت ، الطبعة الأولى ، ١٤١١ هـ - ١٩٩١ م .

